شخصية الحاكم بأمر الله من خلال اتعاظ الحنفا (1)

الصادق الخوني

يتحدث كتاب اتعاظ الحنفا عن تاريخ الدّولة الفاطمية من يوم تأسيسها في إفريقيّة ومرحلة الدّعوة التي سبقت ذلك إلى سقوطها في مصر على يد الايوبيين .

سار المقريزي في هذا التأليف على طريق الحوليات والحديث عن كل خليفة فاطمي على حدة . والاحداث المذكورة هنا متنوّعة وتهم الحياة الدّاخلية لهذه الدّولة مع التأكيد خاصّة على سيرة الخلفاء الفاطميين كما أنه لا يهمل ذكر علاقة مصر بالبلدان الأخرى في العهد الفاطمي (2) .

عاش المقريزي متأخرا عن حياة الدّولة الفاطمية إلاّ أنه استقى معلوماته عنها من مصادر عاصر أصحابها هذه الدّولة واشتغلوا ببعض الوظائف في إدارتها من هذه المصادر ما كتبه المسبّحي — ابن زُولاق — ابن الزبير وابن

(1) يقع كتاب اتعاظ الحنفا بين عقد جواهر الاسفاط (الذي يتحدث عن تاريخ مصر قبل الفاطميين وهو مفقود) وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (ويتحدث عن تاريخ مصر منذ سقوط الفاطميين وحتى عهد المؤلف) .

(2) تكثر فيه التفاصيل وتعاد فيه بعض الأحداث مع كل سنة مثل كسر الخليج وخروج قافلة الحاج وعودتها الخ ....

ميسر الخ (3) . بعضها منشور والبعض الاخر مفقود . ويذكر المقريزي أحيانا الحدث دون ذكر المصدر الذي كثيرا ما نجده في مؤلفاته الأخرى مثل الخطط خاصّـة .

يظهر المقريزي من خلال اتعاظ الحنفا كاتبا موضوعيّا يهمّه ذكر الأحداث المتنوّعة المتعلقة بهذه الدّولة دون ذكر العلة في الغالب أو القدح في سلوك أيّ كان (4) .

وقع تحقيق الجزء التابع لتاريخ الفاطميين بتونس من كتاب اتعـاظ الحنفا من طرف المرحوم جمال الدّين الشيال وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، وحقق نفس الجزء في بداية هذا القرن الألماني هيقُـو – بُونْزْ –
ويظهـر عمـل الشيـال دسمـا ودقيقـا ومفيـدا وواضحـا أكثر من الألماني (5) . وقد اعتُبِرَتْ بقية المخطوط مفقودة بالرّغم من تنبيه الأستاذ كلود كاهان إلى وجودها بمكتبة اسطمبول منذ سنة 1936 (6) .

على كلّ حال عندما اتصلت بالاستاذ كاهان قبل نهايـة السبعينيات وجدت عنده فيلما مصغرا لهذا المخطوط وهو مَنسوخ عن الاصل المفقود وتحصل عليه عن طريق مركز الدّراسات والأبحاث بفرنسا . ونظرا لطول هذا الجزء سلمني بعضه (مائة وستّون صفحة من الحجم الكبير) وما تبقى اهتمت به باحثة جزائرية (السّيدة فَتِـيحَة دِيبْ (7)) .

---

(3) من الكتب التي استعان بها المقريزي وذكرها الذخائر والتحف لابن الزبير – سيرة المعز لابن زولاق – سيرة الأئمة لابن مهذب – أخبار مصر : لابن ميسر المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي .

(4) يعيب المقريزي على المؤرخيـن السنييـن تحيزهم انظر ما كتبـه مع خلافـة المعز في اتعاظ الحنفا (40أ) ولم يشذ عن قاعدة التحيز هذا إلا ابن خلدون والمقريزي (راجع موضوع الحاكم في دائرة المعارف) .

(5) تحقيق هيقو – بونز Hugo - Bunz تم سنة 1908 وتحقيق الشيال سنة 1948 .

(6) انظر مجلة أرابيكا Arabica بتاريخ 1975 – الجزء 22 كراس 3 – في قسم تعـاليق ووثائـق .

(7) القسمان حققا ونوقشا في ماي 1971 من أجل الحصول على دكتورا من الحلقة الثالثة .

الفترة التي اهتممت بها هي الممتدّة من انتقال الحكم الفاطمي إلى مصر حتى نهاية حكم المستعلي أي من 974 إلى 1101م (تاريخ احتلال القدس ومدن أخرى من طرف الصّلبيين (8)) .

وقد ركزت عملي خاصّة على مقارنة نص المقريزي عن الفاطميين بعدّة مصادر كتبت في نفس الموضوع سواء المعاصرة لهذه الدّولة أو المتأخّرة عنها ، كما وضحت بعض الغموض الوارد في النص وعَرّفت في الحاشية ببعض الشّخصيّات المذكورة وحددت مواقع بعض المواضع ووضعت عناوين مطوّلة – هي عبارة عن خلاصة – لكل الأحداث الواردة في النّص ، إلى جانب مختلف الفهارس (اعلام – قبائل مناطق – أطعمة – ألبسة – الخ ....) الخ ......

وقبل الانتهاء من هذه المقدمة – التي أطلت فيها لغرض التعريف بعملي وبهذا المخطوط المجهول نسبيا من طرف الأوساط العلميّة – لا يفوتني ملاحظة أنه ظهر إلى الوجود تحقيق لنفس الفترة من اتعاظ الحنفا التي اهتممت بها قام به الاستاذ حلمي من مصر على مرحلتين سنة 1971 وسنة 1973 (9) ولست أدري إذا كان الاستاذ غير عالم بتحقيقي ! والحال أن جامعة الصربون تنشر باستمرار عناوين للمواضيع التي يهتم بها طلبتها ......على كل حال لاحظت وجود خلاف بيني وبين الاستاذ حلمي في قراءة النص خاصّة ، وبكل تجرّد تظهر قراءتي أقرب إلى روح النص وإلى المنطق حيث اهتممت كثيرا بتوضيح النص بمقارنته بعدّة مراجع وما قلته يؤيّده موضوع الاستاذ كاهان حول التحقيقين في مجلة أرابيكا (10) . وألاحظ أني

(8) وهي فترة هامة من التاريخ الاسلامي كما نرى .

(9) تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد أستاذ التاريخ الاسلامي كلية دار العلوم جامعة القاهرة – القاهرة 1971 و1973 – وقد استعملت أرقام صفحات المخطوط فقط .

(10) قام الاستاذ كاهان كلود بمقارنة بين عدة جمل ووصل منها إلى هذه النتيجة – راجع موضوع أرابيكا المذكور سابقا .

استعملت تحقيق الاستاذ حلمي كمرجع بالنسبة لهذا الموضوع نظرا لأنه في متناول القرّاء بينما عملي لَمْ يُنْشَرْ بعد .

أعود الان إلى الموضوع الذي اخترته من اتعاظ الحنفا وهو شخصيّة الحاكم بأمر الله المنصور الفاطمي .

إن ما دفعني إلى الحديث عنه هو أني قرأت كما سمعت المثقفين يصفون هذا الحاكم بالقساوة والمرض والتقلب والشذوذ والغرابة (11) وعندما صاحبته عن قرب خاصّة في اتعاظ الحنفا بسبب أن المقريزي لا يعطي فكرة سيئة عنه — وجدته رجل دولة من نوع معين وإن كنت لا أنكر بعض صفاته مثل القساوة في التخلص ممّن لا يعجبه سلوكهم — وما ألصق بهذا الرّجل من نعوت مشينه هو من أعداء الشيعة والفاطميين خاصّة يضاف إليهم بعض المقربين الذين لم يتركهم يسيطرون على مصير هذه الدّولة ويسيرونها حسب أهوائهم (12) ، وإلى جانب هؤلاء عدد من العباد الذين ينقلون ما هو معروف عند الناس . على كل بعد قراءة ما كتبه المقريزي خاصّة عن الحاكم حاولت تحليله بمنظار معاصر وهو لا يتعدّى مجرّد محاولة ! ....

وقد اخترت العناصر البارزة في سيرة الحاكم والتي من أجل بعضها وُصِفَ الحَاكِم بالصفات المذكورة أعْلاَه .

الحاكم — الدّولة والموظفون :

توفي العزيز بالله سنة 996م تاركا مصير الدّولة الفاطمية لطفل لم يتجاوز عمره إحدى عشر سنة ونصف هو ابنه المنصور الذي لقب « بالحكم بأمر الله » ، وتسَلّم دولة قوية تقف بندية في وجه الدّولة العبّاسية المجاورة

(11) كمثال على ذلك راجع ما كتب في وفيات الأعيان عن الحاكم بأمر الله .

(12) أقصد بذلك خاصة ست الملك أخته .

وتشمل ولو بصفة نظرية مصر وطرابلس وإفريقية وبلاد الشام ، فيها ينتشر المذهب الشيعي وتلقى الخطبة باسم الفاطميين ، ويذكر لنا اتعاظ الحنفا أنه كم من مرّة ترد أخبار من هنا وهناك عن الدّعوة للفاطميين حتى في بعض المناطق التابعة للعبّاسيين (13) .

دافع الحاكم على مناعة هذه الدّولة بالرّغم من صغر سنّه حيث أخضع له سابقوه الأرض والعباد فلم يبق له إلا أن يواصل سيرتهم بتتبّع أخبارها عن كتب وتبادل الهدايا والمراسلات مع ولاته (14) وبذلك لم يحدث أثناء حكمه ما يُهَدِّد استقرار الدّولة وأمنها سوى بعض المناوشات مع الرّوم على الحدود السورية أو ثورات قصيرة في المكان والزّمان مثل ثورة أبي ركوة(15) وتمرّد قبيلة بني قرّة أو استهداف بعض المواطنين إلى هجومات ليلية من طرف اللصوص واختطاف بعض النساء من الشوارع ، أو حدوث فوضى في أسواق مصر نتيجة ارتفاع الأسعار أو اضطرابها بسبب إنخفاض مستوى مياه النيل أو وقوع فيضانات مضرة الخ .... (16) .

وكان لهذه الدّولة جيش قوي بري وبحري يجنّد أفراده ويرسلون على جناح السّرعة إلى أي نقطة سخنة من الأراضي الخاضعة للفاطميين . إذن لم يفرّط الحاكم خلال حكمه في أيّ جزء من أراضي هذه الدّولة ولم يضعفها أو يترك فيها بذور الضعف لمن يخلفه .

وعند وصوله إلى الحكم وجد الحاكم نفسه بين موظفين وضعوا المساعدة الخليفة على تسيير شؤون الدّولة منهم الوزير والمحتسب وقائد الجيش وصاحب

(13) مثال ذلك إقامة الدعوة للحاكم بمكة والمدينة سنة 387هـ راجع اتعاظ الحنفا – تحقيق حلمي – ج 2 ص : 51 أ .

(14) راجع اتعاظ – حلمي – ج 2 ص : 52 ب وص : 57 أ . حول هدايا ورسائل إلى والي إفريقية مثلا .

(15) عن ثورة أبي ركوة راجع اتعاظ – حلمي ج 2 من 59 أ إلى 61 أ .

(16) كانت مياه النيل مثل الدولار أو الذهب أو البترول في وقتنا الحاضر لها تأثير على ارتفاع أو انخفاض الأسعار والعملة بصفة عامة .

الشرطة والقاضي والناظر في المظالم الخ .... واستطاع بعض الموظفين الجمع بين عدّة وظائف في ان واحد (17) .

كان هؤلاء الموظفون أقوياء ركزوا أنفسهم في عهد والده العزيز الذي اشتهر بالكرم والحلم (18) فلم يجد مفرًّا من مصانعتهم وتقديم الهدايا والخِلع وإسناد الألقاب الشرفية لهم واستدعائهم لمصاحبته في الاحتفالات المختلفة . ولعلّه رأى عدم استطاعته فعل أكثر مما فعل خاصّة وهو الصغير السن الذي ليست له الحريّة في التصرف ولا التجربة التي تمكنه من تسيير الدّولة حسب اقتناعاته .

وما ان أحس بقوّته وركز نفسه واطلع على أسرار موظفيه وعرف نقاط ضعفهم حتى أصبح لا يتسامح ازاء تهاونهم ووقاحتهم وتبذيرهم أو حتى أحاديثهم التي يفهم منها عدم رضاهم على الحكم فكان لا يتردّد في عزلهم وتصفيتهم جسديا ولو كان ذلك غدرا أحيانا مهما علا مركزهم في الوظيفة أو كثر أنصارهم (19) .

ولعل تصرّفه المتصف بالشدّة مع موظفيه يعود إلى عقدة احساس بأنّ مَنْ حوله يعتبرونه صغيرا وتحت الوصاية فأراد بالاكثار من التعيين والعزل والاعدام إذا لزم الأمر أن يثبت لهم أنه لم يعد قاصرا وتحت الوصاية بل له القوّة وحرّية تدبير أمور الدّولة .

وان عقدة محاولة اظهار قوّته أدّت به إلى الاكثار من استعمال القوّة والظهور بمظهر السفاح وقد غالى في هذا الموضوع أحيانا ولعله فهم منه أن

(17) تعيين محتسب وهو في آن واحد مراقب السواحل وتعيين وال على مصر العليا والسفلى – راجع 55 أ و56 أ في اتعاظ – حلمي – ج 2 .

(18) عن حلم العزيز راجع ما كتب في آخر عهده = ص : (50 أ) .

(19) كأمثلة على هذا القتل راجع 53 ب إلى 54 ب و57 أ و57 ب و63 ب الخ ...... (في تحقيق حلمي لاتعاظ ...) .

له قوّة خارقة لا يقف في طريقها أحد ؟ ولعل أمعانه في القتل أدّى إلى شعوره بأن أعداءه كثروا فنتج عن ذلك عقدة خوف تجعله يلتجىء إلى تصفية كل من يُشَكّ فيه ؟ ....

وكان واعيا بما يفعل وبانعكاسات سياسته على السكان ممّا يجعله يقوم بحملة توعية لتبرير عمله بعد الاقدام خاصّة على قتل موظف هام وذلك باستدعاء الأعيان للقصر وكتابة رسائل أمان وسجلات تقرأ في المساجد أو حتى بالكتابة على الحيطان لغرض تهدئة الخواطر وشرح ما حدث (20) .

فالحاكم من النوع الذي يمارس حكما مطلقا وبالتالي يرى أنه لا تقع كبيرة أو صغيرة في دولته إلا ويكون له رأي فيها وهذا ما يدعو إلى سلوك سياسة دمويّه ....

المجتمع الفاطمي :

العناصر البارزة في المجتمع الفاطمي هي فرق وجدت للخدمة المدنية والعسكرية مثل الصقالبة والأتراك وكتامة وعدد هام من العبيد الخ ... كانت هذه المجموعات موزّعة على عدّة أحياء بالقاهرة خاصّة ومن واجبها تقديم جنود للجيش عند الطلب الذي تشكل داخله فرقا مقاتلة .

رأى الفاطميون أن وجود هذه المجموعات هو في صالح دوام حكمهم إذ يستطيعون تحريكها كما يشتهون وضد بعضها أحيانا إذا لزم الأمر — وبذلك يتعذّر عليها مفردة أو مجتمعة التامر أو محاولة السيطرة .

استفاد الحاكم من هذا الوضع فأبقى عليه وعمل على تحقيق التوازن بين هذه القوى وغاية ما يفعله هو أن يقوم حكما بين الفرق المتنازعة عندما

(20) مثل السجل الذي كتب بعد قتل برجوان المكلف بالوساطة ص : 54 أ (في تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفاء) الجزء الثاني .

يشتدّ القتال بينها أو يقدم هدايا لبعض أعيانها من أجل أرضائهم ودفعهم لمواصلة الخضوع (21) أو الضرب بقوّة إذ تعذّر غيره كما فعل مع قبيلة بني قـرّة .

أمّا المسيحيون واليهود فيظهر أن عددهم كان كبيرا بمصر ومحترمين يمارسون عبادتهم بكل حريّة وشغل بعضهم وظائف هامّة مثل الوساطة والطبيب الخاص للخليفة — كانت هذه حالتهم على أقل تقدير في جزء من عهد الحاكم وأثناء حكم أسلافه وخلفائه —

سياسـة الحاكم الدينيّـة :

استعان الحاكم بخبرة اليهود والمسيحيين لتسيير شؤون الحكم فتولى بعضهم الوظائف الهامّة كما أن أطباء الخلفاء الفاطميين كان أغلبهم إذا لم يكن جلهم من المسيحيين وهذا يعني إلى أي درجة كان يستشاق فيهم (22) . وكانت لهم كنائسهم وبيعاتهم ويتمتعون بحرية الأمن والحماية وزيـارة المناطق المقدسة مثل كنيسة القمامة . وسار الحاكم على سنة أسلافه في المشاركة في أعياد النصارى وتقديـم الهـدايـا والخلـع مثـل عيـد الغَطّـاس والشعانين والفصح الخ .... ويحضر أحيانا هذه الاختلافات بنفسه أو بواسطة نوابه ويستقبل رسول الرّوم بحفاوة الخ .... (23) .

إلاّ أن الحاكم غير رأيه وتشدّد عليهم فأمر اليهود بحمل الجرس والمسيحيين بحمل صليب طويل (24) كما فرض عليهم ركوب أنواع من

(21) أقصد الخلاف مثلا بين المغاربة والاتراك — راجع اتعاظ — حلمي — ج 2 ص : 51 ب — 52 أ) .
(22) وقد كلف بعضهم بتولي الطبيب الخاص للخليفة وشؤون الخراج ج 2 52 ب — 58 أ — 62 أ — 62 ب (في اتعاظ حلمي) .
(23) عن استقباله مثلا لرسول الروم راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفاء ج 2 ص : 68 ب .
(24) فرض لباس على المسيحيين واليهود وسروج معينة وصلبان : ج 2 ص : 58 ب و65 ب تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفـا .

الدواب واتخاذ سروج معينة وارتداء لباس محدّد عند الاستحمام وعدم استعمال عبيد من المسلمين ومنعهم من الاحتفال بأعيادهم ، كما ذهب إلى أبعد من ذلك فأمر بهدم عدد من الكنائس ومصادرة أملاكها ونهبها وأرسل من يخرّب كنيسة القمامة ببيت المقدس (25) .

وكان الحاكم يحضر كل الاحتفالات الدينيّة الاسلامية : يصلي بالنّاس في الأعياد على أقل تقدير ويلقي فيهم خطبة وينحر بنفسه في عيد الاضحى ثم يستدعي الأعيان لحضور مأدبة « سماط » ، ويقدم المصاحف للمتردّدين على المساجد ، ويدفع أموالا للمؤذنين والقراء ويسند الهدايا لقائد قافلة الحاج التي تتوجه إلى الأراضي المقدسة محمّلة بكسوة للكعبة (26) وعند العودة منها .

ولم يهمل الحاكم انتماءه الشيعي فشارك في كل التظاهرات الشيعيّة مثل الاحتفال بذكرى غديرخم وعاشوراء الخ .... واهتمّ بجمع مجلس دعوة تلقى فيه دروس في المذهب الشيعي ويتسامح في سب السلف ويمنع تناول بعض الأكلات التي كانت محبوبة لدى بعض أعداء الشيعة مثل الملوخيّة بالنسبة لمعاوية والبقلة لعائشة الخ ...... (27) .

وكما مرّ معنا بالنسبة للدين المسيحي فإن سلوك الحاكم في مجال الدّين الاسلامي لم يكن منتظما ظاهريا فنجد في النص امتناعه أحيانا عن إمامة النّاس في الصلاة لمرض أو لغيره ويأمر بتحديد تاريخ خروج قافلة الحاج من مصر أو يؤخر ذلك (28) ، ويلغي مأدبة الغذاء « السماط » والاحتفال بذكرى عاشوراء وطرد من كان تعود حضور مجالس الدّعوة ويأمر بالكف عن

---

(25) حول تخريب كنيسة القمامة وكنائس أخرى والمنع من الاحتفال بعيد الغطاس ج 2 ص : 62 ب – 63 أ – 63 ب – 64 أ تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا .

(26) بالنسبة لتقديم المصاحف ومبالغ مالية للقراء والمؤذنين – راجع تحقيق حلمي لانعاظ الحنفا : 66 أ و68 ب – ج 2 .

(27) منع تناول بعض الأكلات – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : (58 ب) – ج 2 .

(28) تجديد خروج قافلة الحاج ووقت الافطار وبداية شهر رمضان ج 2 ص : 58 أ – 63 أ – 64 ب (تحقيق حلمي لاتعاظ ...) .

سب السلف ومحو كل ما كتب ضدّهم على الحيطان والذّهاب إلى حدّ قتل مؤدّبه (29) .

لماذا هذا الانقلاب الظاهري في سلوك الحاكم ؟

أمّا أنّه يدخل في خط سياسته الهادفة إلى محاربة كل القوى الموجودة في دولته أو ليحقق التوازن بينها ؟ وكذلك ليظهر لها كفاءته ورشده ، أو لعله من أجل كسب عطف أهل السنة في الخارج والدّاخل يقوم بما يرضي هؤلاء وعندما يحسّ بغضب المتعصبين للشيعة يتشدّد على الأوّلين ؟

ثم ألا يكون اقتنع بضرورة وجود مساواة بين كل الأفكار الدّينية وأن يبقى هو حكما على كل ذلك ؟ ....

وبالنسبة للقول بتغيّر سياسته تجاه المسيحيين واليهود قد يعود إلى اكتشافه بأن الفساد الذي عليه مجتمعه هو بسبب تجاهر هؤلاء بما يتنافى مع لأخلاق الإسلاميّة مثل استحمامهم عراة أو لاحتفالاتهم التي يشرب فيها الخمر ويختلط فيها الرّجال بالنساء ؟ ....

الحاكم والثقافة :

من أهمّ انجازات الحاكم في الميدان الثقافي انشاؤه لدار الحكمة بالقاهرة التي جلب إليها عددا هامّا من الكتب وقصدها القراء والنساخ وعينت مرتبات للمشتغلين فيها وبذلك أخذت مصر تتحوّل إلى مركز اشعاع علمي يضاهي ما هو موجود في بغداد والمراكز الأخرى في العالم الاسلامي ولعل هذا هو هدف الفاطميين أي بجعل القاهرة قبلة طلاب العلم ومنها تنطلق الدّعاية الشيعيّة (30) .

(29) قتل المؤدب -- راجع تحقيق حلمي ص 57 أ – ج 2 .

(30) فتح دار الحكمة – راجع تحقيق حلمي ص : 59 أ – ج 2 .

كما وُجدت مجالس تلقى فيها دروس تتعلق بالدعوة الفاطميّة . وبنى الحاكم عددا من الجوامع مثل جامع راشدة والحاكم الخ ..... كما كان يأمر بتقديم المصاحف إلى الجوامع .

ويقول نصّ في اتعاظ الحنفا أنّ الحاكم متذوّق للشعر والأدب ومن ذلك أنه عندما يعنّ له استعراض فرق جيشه يستدعي الشّعراء خاصّة وكلما أعجبه بيت شعر طالب بإعادته ويجازي البارزين في ذلك (31) كما وقعت في عهده محاولة لبناء مرصد .

هل يمكن أن يرمى من اهتم بالعلم والثقافة باختلال التوازن والمرض ؟....

الحاكم والمرأة :

كانت المرأة المصرية قبل عهد الحاكم وفي جزء من عهد هذا الأخير تخرج إلى الشارع لقضاء شؤونها وتتجوّل على ضفاف وادي النيل وتشارك في الاحتفالات وتقف على أرصفة الطرقات لمشاهدة مرور ركب الخليفة وتطل من النوافذ لرؤية الغادين والرّائحين ولعلها كانت تشرب الخمر أحيانا (32) إلاّ أن هذا لم يخل من بعض المشاكل على ما يظهر مثل اختطاف نساء من الطريق العام وأدّى اختلاط النساء بالرّجال في الاحتفالات وزياراتهن للمقابر إلى حدوث منكر . لهذا ولغيره ممّا هو غير وارد في اتعاظ الحنفا خنق الحاكم حرّية المرأة فمنعها أوّلا من مصاحبة الجنائز ثم من زيارة المقابر ومن التطلع من النوافذ ، وفرض على كل النساء الفتيات والعجائز المكوث في المنازل (33) وعوقبت كل من خالفت هذا الأمر وأخيرا منع صنع أحذيتهن ممّا سبب كساد هذا النوع من التجارة ! ......

(31) عن استعراضه للجيش واستماعه للشعراء وتذوقه للأدب – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفاء ص : 52 أ و70 ب – ج 2 .

(32) يتحدث اتعاظ الحنفا مع خلافة الظاهر على شرب المرأة للخمر في بعض الاحتفالات .

(33) عن خنق حرية المرأة – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : 58 ب – 64 ب – 67 ب – 68 ب – ج 2 .

هل لهذا التشدد صلة باكتشافه أمر علاقة بين أخته ست الملك وأحدهم وقد اتهمها (34) بأنها حامل كما تقول رواية في اتعاظ الحنفا ؟ أو أن هذه الأخيرة ضايقته بمحاولتها التدخل في شؤون الحكم فحقد عليها ومن خلالها المرأة بصفة عامة ؟ أم أن هذا التصرّف يعود إلى أن نساء مصر أكثرن من الاختلاط بالرّجال وممارسة الخطيئة التي تنكرها الديانة الاسلامية ؟ أم هذا له علاقة بما لوحظ عن زهده في اخر حياته ؟

ألوهيـة الحاكم :

عرف عن الحاكم في بداية حكمه أنه شخصية عادية يهمّه استتباب الأمن على طول أراضي دولته ويختار الموظفين الاكفاء ويعاقب المتهاونين والوقحين منهم ويشارك في المناسبات الدّينيّة ويستدعي الأعيان لحضور السّماط ويتفقّد الأسواق ويذهب إلى الصيد وسط ركب كبير تعلوه الزينة ويحضر فتح الخليج عند ارتفاع مستوى مياه النيل ....

إلا أنه في اخر حياته أكثر من الخروج بالليل والنهار وأبدل الركب بخادم وحيد والخيول المطهمة والسروج المذهبة بحمار والألبسة المتلألئة بما هو في غاية التواضع ، وأثناء ذهابه وإيّابه كان يوزع المال يمينا ويسارا بلا حساب ويتوقف في الطريق ليتلقى شكاوى الناس ويحادثهم ويضاحكهم وأحيانا يمنعهم من الاقتراب منه ، وأكثر من اصدار الأوامر بعضها يتعلق بقتل الكلاب والاخر بمنع بيع النبيذ والزبيب والقلال (35) وفرض منع

(34) عن موضوع اتهام ست الملك بأنها حامل – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : 69 أ – ج 2 .

(35) راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا 64 ب – ج 2 .

التجوّل في وقت معين من الليل (36) كما قتل عددا من الموظفين وغيرهم من السكان وقطع أيدي وألسن البعض (37) ....

ماذا حدث للحاكم ما الذي غيّره ؟

بينما كان على هذه الحالة ورد على مصر رجل يدعى الدَّرَزِي فاجتمع بالحاكم ونال هداياه ثم خرج ليقول للناس بألوهيّة الحاكم ففوجئ النّاس بذلك وهمّوا به فقتلوه ثم قدم داع اخر يدعى حمزة فأكّد هذا القول وأباح كثيرا من المحظورات فالتف حوله أنصار كثيرون وخاصة في الشام .

ما الذي دعاهم للقول بالوهية الحاكم ؟ لعلّ سلوكه في اخر حياته هو الذي دفعهم إلى ذلك : فالحاكم حرّم الخمر وضيّق على مروجيه وأتلف حتى الثمرة التي ينتج منها ومنع الملاهي واختلاط الرّجال بالنساء كما مال إلى التقشف في لباسه وركوبه لحمار وخروجه في ركب يكاد يكون معدوما وتقديمه للهدايا والهبات والصدقات بلا حساب وأمر بعدم مخاطبته بألقاب التفخيم (38) ومحاربة كل موظفيه الذين تحدّثهم نفوسهم بالتكبّر وتعيينه لولي العهد هو ابن عمّه بالرّغم من وجود ابنه (39) وأعتق عددا من خدمه وجواريه (40) !

لماذا سلك هذا المسلك ؟ ألا يكون قد زهد في الحكم بعد أنْ أحَسَّ أنّ جدارا من الخوف وعدم الثقة قد انتصب بينه وبين مواطنيه ؟ ولكن هذا السلوك ألا يمكن ترجمته من بعيد بأنه نوع من التصوف الذي يؤدّي إلى الاتصال بالله وبالتالي يُؤَلّه صاحبه ؟

---

(36) خطر التجول في الليل ص : 67 ب (تحقيق حلمي لاتعاظ ...) .
(37) أقصد بذلك ما حدث للجرجرا ئي وغبن – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا – ص : 67 أ – ج 2 .
(38) أمر الناس بعدم مخاطبته بأسماء لا تكون إلا لله ج 2 ص : 58 أ – تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا .
(39) عين لولاية العهد ابن عمه ألياس – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : 66 ب – ج 2 .
(40) راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : 66 ب – ج 2 .

ولكن هل كان الدّرزي مقتنعا بذلك أم أنه مجرّد متشيّع خاف على هذه الدّولة من الضعف فأشاع ألوهيّة الحاكم ليقول بأنه معصوم وبالتالي يبرّر سلوكه وليضع حدّا لعدم الثقة التي انتصبت بين الحاكم ومواطنيه ؟

ولكن ألا يكون مروّجو فكرة ألوهيّة الحاكم قد توصلوا إلى ذلك بحدسهم وأحاديثهم الخاصّة مع الحاكم ؟

أما الحاكم حسب نص اتعاظ الحنفا فهو لم يعلن عن شيء من هذا القبيل ولم يعارض هذا الدّاعي وواصل خروجه بالليل والنهار وبكثرة في ركب بسيط نحو الجبل القريب من القاهرة وأصبح ميّالا للوحدة ومبتعدا شيئا فشيئا عن تسيير شؤون الحكم إلى أن كانت نهايته الغامضة التي حمل معها سرّه في صدره .

نهايته الغامضة :

ما زال الحاكم يملك قواه الجسميّة والعقلية إذ أنه لم يصل بعد إلى الأربعين سنة كما كان مهتما بأمور الدولة – ولو نسبيا – إلى اخر أيّامه عندما اختفى عن الوجود بعد أن خرج كعادته في جولته الليليّة .

يورد المقريزي فقرات لبعض المؤرخين تجمع على قتله ! ولكن من يوجد وراء هذه الجريمة ؟ .... عدد من المؤرّخين وجهوا اصبع الاتهام باتجاه ست الملك أخت الحاكم فهذا الأخير اتهمها بأنها حامل ، كما قضى على طموحها في تسيير شؤون الدّولة (41) ؟

ويقول اتعاظ الحنفا بالاستناد إلى نصوص مؤرخين أن ست الملك دبّرت مؤامرة بالاستعانة ببعض رجال الدّولة الذين تستثيق فيهم وكلفت بعض

(41) لقد كان الحاكم يخاف على أمه من ست الملك ومن سطوتها حيث سلمها خمسمائة دينار ذخيرة لها لبلة اختفائه وكأنه على علم بالمؤامرة التي تدبر ضده – راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ص : 69 أ – ج 2 وما بعدها .

الخدم لتنفيذ ذلك . ونُفِّذت المؤامرة كما سطّرت لها وتسلمت جثة أخيها فأخفت ما حدث حتى رتبت الأمور وهيات ابنه الظاهر لاعزاز دين الله لخلافته ثم تخلصت مِنْ كُلّ مَنْ شاركها المؤامرة لتمحو كل أثر لا لاتهامات ممكنة وهذا ما جعل النّاس لا يفهمون ماذا حدث بالضبط ممّا حدا ببعضهم فيما بعد إلى الادّعاء بأنه كان في صحبة الحاكم أو أنه الحاكم بنفسه (42) .

ما من شك أن فكرة الألوهية والمرض النفساني هي من اختلاف ست الملك حتى تبيّن بأنه قتل نتيجة اضطراباته النفسية وخروجه في الظلام إلى الجبل بدون حراسة .

وهكذا انتهت حياة الحاكم بأمر الله في ظروف غامضة بعد أن حكم قرابة الخمسة وعشرين سنة ساد في أغلب فتراتها الأمن على كامل تراب الدّولة الفاطمية وروّع فيها العديد من الموظفين خاصّة ، وبذّر الأموال على شكل هدايا وهبات وخِلَع – بالرّغم من أنه لم يكن الوحيد من الفاطميين في سلوك هذا المسلك (43) – وحارب كل القوى الاجتماعيّة – وأكثر من اصدار الأوامر في تنظيم حياة العباد ونظافة المدينة وتتدخل في الكبيرة والصغيرة شأنه شأن أي حاكم ديكتاتوري ، وأصْدَرَ بعض الأوامر ثم تراجع فيها وعفا عن البعض ثم أقرّ اعدامه (44) ، وهذه استراتيجية في الحكم لاتقاء الثورات وربح الوقت وكم وقع الالتجاء إليها حتى في عصرنا هذا . وقد أشيعت في اخر حياته فكرة ألوهيته التي لم يرفضها أو يزكيها إلاّ أنها كوّنت حولها فرقة الدّروز التي ما زالت تعيش إلى اليوم .

---

(42) مثال ذلك الرجل الكتامي الذي زعم أنه ورد من الكوفة وأنه كان مع الحاكم (موجودة مع خلافة الظاهر) . راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا ج 2 ص : 73 أ .

(43) كل الخلفاء الفاطميين كانوا يقدمون الهدايا والخلع .

(44) أقصد بذلك موضوع أبن جوهر وابن النعمان راجع تحقيق حلمي لاتعاظ الحنفا – ص 62 أ و62 ب – ج 2 .

هذه شخصية الحاكم كما جاءت في اتعاظ الحنفا والحقيقة إني إلتزمت بحثا قصيرا حاولت فيه التعريف بالحاكم بتقديم معلومات مختصرة مجتهدا في نفس الوقت تقديم بعض التعليلات لسلوكه لأن المقريزي أهمل في الغالب ذلك ولعله رأى أن عدم الانحياز والعلميّة يقتضيان هذا التحفّظ .

وقد حاولت بهذا البحث أن أبعد عن الحاكم الافكار المسبّقة التي تلاحقه وفكرة الشخصيّة الغريبة الأطوار التي ألْصِقَتْ به ، وأردت أن أقول أنه من طينة نوع من الحكّام وصحته العقليّة طيّبة إذا كانت هذه الصفة تطلق على الحكام ذوي النزعة الفردية !..............................